

المحاضرة الثالثة:

أطروحة "مجتمع المخاطر" (2)

نظرية جيدنز (Giddens)

يعتبر أنتوني جيدنز من أهم علماء الاجتماع الذين ربطوا بين العولمة والمخاطر، حيث يعتقد بأن العولمة تؤدي إلى نتائج بعيدة المدى وتترك آثارها على جوانب الحياة الاجتماعية غير أنها عملية مفتوحة متناقضة العناصر، تسفر عن مخرجات يصعب التكهّن بها أو السيطرة عليها. ويمكن دراسة هذه الظاهرة من زاوية ما تنطوي عليه من مخاطر. فكثير من التغييرات الناجمة عن العولمة تطرح علينا أشـــــــكــــالاً جديــــدة من الخطــــر..

ويمكن اعتبار صراع الدول المتقدمة استنفاداً وإفساداً للطاقات الطبيعية والبشرية خاصة في ظل العداء المتصاعد بين القوى الكبرى،

خصوصاً الولايات المتحدة والصين، وهو ما اقترن بتراجع الطلب على المواد الأولية، وتراجع أسعار البترول. وفي الآونة الأخيرة ونظرا لتفشي فيروس كورونا، قد وقرّ المناخ الأكثر مناسبة لتسعير هذا الصراع، الذي يشهد العالم مزيدا من فصوله. وفي هذا الإطار، تبدو الحكومات أقل قدرة على استيعاب التداعيات الاقتصادية لهذه الأزمة. فلم تسمح العولمة بالانتشار السريع للأمراض المعدية، فحسب، بل عزّزت الترابط العميق بين الشركات والدول، مما يجعلها أكثر عرضة للصدمات غير المتوقعة، ويتكشف اليوم مدى ضعف الشركات والدول في مواجهة الأزمة.

وفي ظل التقصير الحكومي، وغياب الشفافية، واللجوء للإنكار والتطمين الزائف، وكأن كورونا قضية أمن دولة، استمرت عدم ثقة المواطنين بالحكومات، وتم إيجاد مصادر بديلة غير رسمية لتقصي الحقائق تمثّلت في وسائل التواصل الاجتماعي، وتعليقات

المستخدمين، في فضاء يخال الواحد منا أن الجميع فيه أصبحوا أطباء ومختصين بعلم الأوبئة، انخرطوا في بازارات الوصفات والعلاجات.

هذا من أجل القضاء عليه، يشترط كورونا كفيروس محاصرته عن طريق العزل والحجر الصحي ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الاجتماع الإنساني قد فشل عندما تحول إلى قرية صغيرة بفضل منجزات الحداثة في تحقيق القرب الحقيقي وتمكين الإنسانية من السعادة وتغليب الخير على الشر. ذلك أن منجز الحداثة كان وراء انتشار المجال الحضري وتكاثر المدن ووسائل النقل التي قربت المسافات وأعادت ضبط الزمن والجغرافيا. فكل ما هو مشترك من وسائل نقل وفضاءات عامة مثل المقاهي والمطاعم والعروض الثقافية والمقابلات الرياضية... كل هذا أصبح مصدر خطر وإصابة بفيروس «كورونا». ومن ثم كأن «كورونا» يريد إلغاء وظيفة بعض منجزات الحداثة. وهذا بدوره يقودنا إلى هدم فكرة

حرية الفرد التي قام عليها جوهر الحداثة.
وهكذا يكون مجتمع الحداثة قد عاد إلى ما قبل الحداثة حيث كانت
الطبيعة قاهرة للإنسان وهذا الأخير يطارده خوفه من الطبيعة الذي
قاده إلى ابتكار أشكال أولية للاعتقاد يستمد منها القوة قبل ظهور
الاديان التوحيدية.

وفي الاتجاه نفسه يرى جيدنز أننا نحيا في عالم يترنح على حافة
الكارثة، فقد انحرف عن مجراه الأصيل بطريقة يصعب معها إعادته
إلى صوابه . فما يسميه ماركس " فوضى السوق " يبدو في عصرنا
كظاهرة عالمية . إننا نحيا في ما يسمى " الاقتصاد الرأسمالي العالمي
" الذي فيه تشكل العلاقات الرأسمالية الاقتصادية كفة الميزان للعالم
وحتى على الجانب الإيجابي أو الأكثر أهمية، نحن نحيا في نظام الدولة
القومية العالمية وهو نظام لا نظير له في التاريخ، ولكن فيه من

الهشاشة الواضحة في تحطيم قواه العظمى التي تسليح بها على
الفوضى السياسية في النظام العالمي .

ومجتمع المخاطر هو في الواقع نظرية سوسيولوجية تفسر
عملية إنتاج وإدارة المخاطر في المجتمع الحديث المعرض لنمط خاص
من الخطر، هو نتيجة لعملية التحديث ذاتها التي غيرت من التنظيم
الاجتماعي. وقد ترتب على نشوء المجتمع الصناعي بما يتضمنه ذلك
من استخدام واسع للآلات في المصانع والمزارع في البدايات الأولى له
وتطوير الاعتماد على التكنولوجيا التي غزت في الواقع كل ميادين
الحياة، إلى ظهور أنواع شتى من المخاطر لم تكن معروفة من قبل.

ومن ناحية أخرى تقوم نظرية تشكيل البنية ((théorie de la
structuration لأنتوني جيدنز على التسليم بأن مجال الفعل الإنساني
محدود، فالبشر يصنعون المجتمع فعلاً وبشكلونه، ولكنهم يقومون بذلك

باعتبارهم فاعلين مشروطين تاريخيًا، في ظل ظروف تاريخية متوارثة،
ولا يفعلونه في ظل ظروف من اختيارهم.

ويستخدم جيدنز أيضًا فكرة الحدثة الانعكاسية (modernité réflexive)، التي تتميز بها مجتمعاتنا والتي يتم تشكيل البنيات الأساسية بواسطتها. تؤكد نظرية الحدثة الانعكاسية عند جيدنز أن المجتمع يتم تطويره من خلال حركة انعكاسية، ذهابًا وإيابًا، بين ما هو كائن وما هو ممكن. بالنسبة لجيدنز، فإن "ما هو بنيوي" هو مجموعة من الخصائص التي تسمح بـ "ربط" الزمكان بالنظم الاجتماعية. يسمح كل ما هو بنيوي للممارسات الاجتماعية بالاستمرار في مساحات متغيرة من الزمان والمكان، مما يمنح الممارسات صفة النسق الخارج عن إرادة الأفراد. الانعكاسية هي إذن عملية إعادة إنتاج أو تحقيق اجتماعي من خلال ممارسات الفاعلين، ولكن أيضًا من خلال تلك التي تنشئها قوة البنيات (على سبيل المثال: المؤسسات).

وبالتالي تتوقع المؤسسة جزءاً من مستقبلها، وتعمل بشكل منهجي من خلال هذه القوة الانعكاسية للبنىات، لربط المستقبل والماضي بحاضر معقول ومقبول، ثم تشكل البنية بعد ذلك "الوسيط والنتيجة غير المقصودة للممارسات الاجتماعية"

كما يرفض جيدنز النظر إلى المجتمع باعتبار وجوده مستقلاً عن أفرادهِ، فهو يرى أن المجتمع ينتجُه ويعيد إنتاجه فعل البشر على غرار نظرية بيير بورديو في المجال التربوي، ولهذا يرفض النظر إلى الموقف الاجتماعي على أنه المحدد لفعل البشر، فالمجتمع يتم إنتاجه من خلال الصياغة الماهرة لأعضائه الفاعلين، الذين يعتمدون على موارد وظروف ليسوا على وعى بها، أو لا يدركونها إلا بصورة مشوشة.

وأما في جهة أخرى، يختلف جيدنز عن أنصار نظرية إعادة الإنتاج في كونها حتمية إذ تتصل رؤيته بمفهوم الممارسة، إذ يرى أن الذات

الإنسانية بوصفها كائنًا عاقلًا فاعلاً، تتحدد علاقتها بالمجتمع في ضوء مجموعة من الممارسات المستمرة، بحيث يتشكل كل من الفعل والبنية في ضوء هذه الممارسات، لا الفعل سابق على البنية ولا البنية سابقة على الفعل، بل إن كلاهما متضمن في الآخر. وهذا يقودنا إلى مفهوم الظروف (النتائج) غير المقصودة للفعل والذي يعبر عن الجوانب غير المقصودة في الأفعال الاجتماعية، وتكمن أهمية تلك النتائج أو الظروف في أنها تلفت الانتباه إلى عالم اللاوعي وعالم المسكوت عنه في السلوك. ويرى جيدنز أن المعرفة الاجتماعية ترتبط بكل من: (الممارسات الاجتماعية، والقواعد)، من خلال الوعي بالمهارة في أداء السلوك، أو ما أسماه جيدنز مهارات الممارسة والذي ينقسم إلى: الوعي التعبيري أي القدرة على استخدام اللغة، والوعي العملي أي المهارة في التفاعل مع الآخرين. وبالنسبة لجيدنز فإنه يمكن تفكيك كل ممارسة إلى عدد كبير من القواعد السلوكية

الضمنية، والتي تتميز بأن لها جانبين يميزانها عن القوانين المكتوبة الجانب الأول هو: الجانب الدلالي، والمرتبط بالمعاني والدلالات اللصيقة بالممارسات الاجتماعية، والثاني هو: الجانب المعياري والذي يحدد مدى شرعية أو عدم شرعية تلك الممارسات من منطلق الحقوق والواجبات. في حين تخضع المفاهيم السوسولوجية لازدواجية تأويلية، فالتأويل هو أحد أسس النظرية الاجتماعية، ومهمة عالم الاجتماع هي مهمة تأويلية في المقام الأول، إذ يتأسس تشكيل الحياة الاجتماعية على تأويل الأفعال اليومية فيها، ولقد أطلق جيدنز على تلك العملية مفهوم التأويل المزدوج ليعبر عن جوهر مهمة الباحث السوسولوجي؛ إذ يقوم هذا المفهوم على: (التأويل من قبل الباحث، وعلى محاولته فهم التأويلات التي تبني عليها الحياة الاجتماعية)، ومن ثم فإن فهم المجتمعات البشرية يقوم على فهم الطريقة التي تشكل تأويلات

الناس، وبنائهم لمعاني أفعالهم، إلى جانب القيام بتأويل الأفعال.

الاجتماعية في الوقت نفسه.